بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ خير ما ينبغي للعبد أن يذكر الله به هو كلامه تبارك وتعالى، الذي هو خيرُ الكلام وأحسنُه وأصدقُه وأنفعُه، وهو وحي الله وتنزيلُه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى على أفضل رسول، على عبده ومصطفاه وخيرته من خلقه محمّد بن عبد الله ﷺ.

يقول الله تعالى في بيان شرف هذا القرآن الكريم وفضله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا اعتناءٌ كبيرٌ لشرَفِ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الملَكُ بالقرآن، صباحًا ومساءً، سفراً وحضراً، فكلُّ مرّة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدّمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمّد ﷺ أعظم نبيّ أرسله الله تعالى»[1].اهـ.

إنَّ فضل القرآن الكريم وشرَفَه ورفيعَ قدره وعلُوَّ مكانته أمرٌ لا يخفى على المسلمين، فهو كتابُ الله ربِّ العالمين، وكلام خالق الخلق أجمعين، فيه نبأُ ما قبلنا، وخبرُ ما بعدنا، وحكمُ ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبسُ به

(1): تفسير القرآن العظيم (6 / 118).

الألسن، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخلَق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.وهو أَجَلُّ وأعظم ما يُتقرب به الى الله سبحانه وتعالى فعن فروة بن نوفل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أخذ خبَّاب بن الأرتّ بيدي فقال: «ياهناه تقرَّب إلى الله بما استطعت فإنَّك لست تتقرب إلى الله بشيء أحبَّ اليه من كلامه»[2].

إنَّ قدر القرآن وفضله هو بقدر الموصوف به وفضله، فالقرآن كلام الله وصفته، وكما أنَّه تبارك وتعالى لا سَمِيَّ له ولا شبيه في أسمائه وصفاته، فلا سميَّ له ولا شبيه له في كلامه، فله تبارك وتعالى الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته، لايشبهه شيء من خلقه، ولا يشبه هو تبارك وتعالى شيئًا من خلقه، تعالى وتقدّس عن الشبيه والنّظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، والفرق بين كلام الله وكلام المخلوقين كالفرق بين الخالق والمخلوقين.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الربِّ على خلقه، وذلك أنَّه منه»[3].

وقد روي هذا اللفظ مرفوعًا إلى النبي ﷺ، إلاّ أنّ رفعه لا يثبت كما أوضح ذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «خلقُ أفعال العباد»[4] وغيرُه من أئمّة العلم. وأما معناه فحق لا ريب فيه،

(2): رواه عبد الله بن أحمد في السنة (رقم: 111) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (558) وغيرهما بإسناد صحيح
(3): رواه البيهقي في الأسماء والصفات (1/ 504).
(4): (ص:162)، وانظر: السلسلة الضعيفة للألباني (3/ 505).

ولا ريب في حسنه وقوّته واستقامته وجمال مدلوله، وقد استشهد أهل العلم لصحّة معناه بنصوص عديدة، بل إنَّ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ جعله عنوانًا لأحد تراجم أبواب كتاب فضائل القرآن من صحيحه، فقال في الباب السابع عشر منه: «باب فضل القرآن على سائر الكلام»، وأورد تحت هذا الباب حديثين عظيمين:

الأوّل: حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترُجَّةِ طَعمُها طيِّب وريحُها طيِّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيِّب ولا ريح فيها، ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَل الرَّيحانة ريحها طيّب وطعمها مُرٌّ، ومَثَل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها»[5].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب فضائل القرآن، وهو عبارة عن شرح مختصر وعظيم الفائدة لكتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري: «ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث أن طيب الرائحة دَارَ مع القرآن وجودًا وعدمًا، فدلّ على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر»[6].

والحديث الثاني: حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلُكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنّصارى كمثل رجل

(5): صحيح البخاري (رقم:5020)، وصحيح مسلم (رقم:797).
(6): فضائل القرآن (ص:101).

استعمل عمّالا، فقال: من يعملُ لي إلى نصف النّهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حقّكم، قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئتُ»[7].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومناسبته للترجمة أنَّ هذه الأمة مع قصر مدّتها فَضَلَت الأمم الماضية مع طول مدّتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] في المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُّون سبعين أمّة، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله»[8]، وإنَّما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم: القرآن الذي شرّفه الله على كلِّ كتاب أنزله وجعله مهيمنًا عليه، وناسخًا له وخاتمًا له، لأنَّ كلَّ الكتب المتقدّمة نزلت إلى الأرض جملةً واحدةً، وهذا القرآن نزل مُنجَّمًا بحسب الوقائع لشدّة الاعتناء به وبمن أنزل عليه، فكل مرّة كنزول كتاب من الكتب المتقدّمة.

وأعظم الأمم المتقدّمة هم اليهود والنّصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام، والنّصارى من ثمّ إلى أن بعث محمّداً ﷺ، ثم استعمل أمّته إلى قيام الساعة، وهو المُشَبَّه بآخر النهار، وأعطى المتقدّمين قيراطًا

(7): صحيح البخاري (رقم:5021).
(8): المسند (3/ 5)، سنن الترمذي (رقم:3001)، سنن ابن ماجه (رقم:4288)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:2301).

قيراطًا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أيْ ربَّنا، ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ فقال: هل ظلمتكم من أجركم شيئًا، قالوا: لا، قال: فذاك فضلي، أي: الزائد على ما أعطيتكم أوتيه من أشاء، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[الحديد]»[9].

إنَّ الواجب علينا أن نعظّم القرآن الكريم، الذي هو مصدر عزِّنا وسبيل سعادتنا، ونحفظ له منزلته ومكانته، ونَقدرَه حق قدره، [ونعمل به].

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان يحب أن يعلم أنَّه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحبّ القرآن فهو يحبُّ الله، فإنَّما القرآن كلام الله».

ويقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القرآن كلامُ الله، فمن ردّ منه شيئًا فإنَّما يردّ على الله».

والآثار في هذا المعنى كثيرةٌ، فنسأل الله الكريم أن يعمر قلوبنا بحب القرآن وتعظيمه وتوقيره [والعمل به]، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصّته.

www.al-badr.net

(9): فضائل القرآن (ص:102، 103).

أفضل الذكر
القرآن الكريم

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار المحجة

شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية